الحضارات الفرعية : تفاعل أم صراع

أ.د. مضر خليل عمر
وحدة الأبحاث المكانية

في خضم الحياة اليومية ، وبدون بعد نظر فلسفي تختلط الأوراق و المفاهيم ، و لكن بعد تمحص بسيط يجد المرء أن الأمور أوضح مما كان يتوقع أو يتصور . فالعامة تطلق (وحتى الكثير من المثقفين أو أدعياء الثقافة من المتعلمين) العنان لألسنتهم في ردود أفعال لاعنة غياب العدالة و القيم و سيادة اللاموضوعية و تسف في السب و الطعن . فهل هناك علاقة بين هذه المفاهيم ؟ وأيها سبب و أيها نتيجة ؟ وهل تشكل مع بعضها نظاما اجتماعيا معيناً ؟ هل تشكل حضارة من نوع ما ؟ أم تعكس مستوى حضاري معين ؟ وهل هي حلقة العلاقة (تنتهي من حيث تبدأ) ؟ و ما اتجاه هذه الحلقة (الراقي بالقيم أم تداعيها و تدني معاييرها) ؟ هذا ما يحاول هذا المقال فتح باب حوار (ثقافي) حوله .

في البدء ، لنتفق جدلا ان الحضارات الانسانية الرئيسية (الزراعية ، الصناعية ، الخدمية) هي من نتاج تفاعل ثلاث عناصر جوهرية هي : الاساس الاقتصادي وتقنياته ، تقنية المواصلات والاتصالات ، والفكر السياسي واسلوب عمله . وان هذه الحضارات مرت و تمر بمراحل ، وان تقسيم العمل كان و ما زال العمود الفقري في جميعها ، وانه يزداد تنوعا وعمقا مع الزمن . وأن هذه الحضارات تكمل بعض ، ولا توجد اي منها بدون تمثيل نسبي للاخريات .

وأیضا لنتفق على ان القيم السائدة هي من نتاج صراع المجاميع الاجتماعية - الاقتصادية - العرقية - الدينية ضمن الحضارة الام لتشكّل حضارات (ثقافات) فرعية خاصة بها ، ولهذا فان القيم موجودة في كل زمان و مكان ، و لكل مهنة امتهنها الانسان عبر العصور قيمها الخاصة بها ، ولكل مجموعة اجتماعية (أو اي كانت طبيعتها) قيمها الذاتية التي تصيغها لتبرر مواقفها وسلوكياتها . وبالمناظر العملي فان قيم المجموعة تعكس (حضارتها) ، وبالمحصلة النهائية نجد ان القيم نسبية بدرجة كبيرة جدا ومتباينة تباين المجاميع العاملة على سطح الارض ومستوياتها الحضارية .

وطوال تاريخ البشرية ، كان و مازال الصراع بين مسارين للقيم : مادي و غير مادي، وما ظهور المصلحين الاجتماعيين عبر التاريخ الا كرد فعل لابتعاد القيم عن (جادة الصواب) وبانحراف نحو المادية (النفعية الطبقية - الاجتماعية - الفردية) . لقد حاولوا تخفيف تعجيل الاتجاه المادي مرارا وتكرارا ولكن دون طائل . كان ، وما زال التيار المادي هو الاقوى .

من الناحية العلمية فان الموضوعية هي رديف للتقييم الحيادي للشئ او الحدث ، و بسيادة (الأنا - المصالح) الذاتية والاجتماعية في التفكير والسلوك ، مؤطرة بالقيم السائدة عند الفرد و\او المجموعة فان الموضوعية قد تلوثت ولم تبق (بدون لون او طعم او رائحة) . لقد تلوثت كما هي بيئاتنا الطبيعية . فالسلوك الاناني للانسان (وبدرجات و مستويات متباينة و متنوعة) قد لوث البيئتين الطبيعية و الاجتماعية في كل مكان . لقد حفر الانسان قبره ماديا و معنويا بعنجهية و غرور متبجحا بسيادته على كل شيء الا على نفسه الامارة بالسوء .

ولا نريد القول بغياب الموضوعية ، ولكن الواقع يشير الى انها قد أصبحت متنوعة تنوع القيم التي شكلتها و بنيت على اساسها ، فهي نسبية بدرجة كبيرة جدا تفوق تصور واضع النظرية النسبية و مؤيدوها . والمصلحون الاجتماعيون (سياسيو القرن الجديد) في الالفية الثالثة، ومن اجل اضاء الشرعية على التنوع اللاموضوعي (للموضوعية) و تخفيف نتائج تصادم المصالح خرجوا بمصطلحات : الشفافية Transpances ، المنظمات غير الحكومية ، مؤسسات المجتمع المدني و غيرها من تشكيلات تزيد الامر تعقيدا . ولست ادري ، من ناحية المنطق الرياضي (العلمي الوحيد حسب علمي لكونه تجريدي) هل تجزئة ال(100%) الى (3) فئات موضوعي ام توزيعها على (100) فئة ؟ وهل تداخل الفئات يشكل (100%) ؟ وهل تجميع الاجزاء يشكل (الكل) ويطوره ؟ ام ان (الكل) يحتوي الاجزاء و ينمياها ؟ قد يفهم البعض هذا سياسيا ، وليكن ، ولكني أكاديمي اناقش الموضوع (بموضوعية) قدر المستطاع بعيدا عن الميول والاتجاهات والتعصب الضيقة .

الموضوعية سبيل من سبل تحقيق العدالة ، ولا يرفض عدالة الموضوعية الا مكابر لا يرى الا مصالحه الذاتية فقط . ففقدان العدالة يعني ضمنا غياب الموضوعية ، وتتحى الموضوعية عن الظهور راجع الى سيادة قيم و مصالح ذاتية . وهنا يطرح سؤال : بما ان القيم موجودة و متنوعة ، و على اساسها تنوعت الموضوعيات و تعددت ، فهل يمكن القول بوجود عدالات متنوعة و متباينة ؟ اذا كان الحال هكذا ، فعدالة من هي ؟ و على حساب من تتحقق ؟ وهل يمكن القول ان تعدد الموضوعيات و تنوعها سبب في انزواء العدالة وانحسارها ؟

من سياق المقولات اعلاه يستخلص ان العلاقة خطية : قيم ثم موضوعية ثم عدالة ثم حضارة . ولكن هل تثمر العدالة قيما جديدة ؟ اذا كان الجواب بالايجاب فالعلاقة حلقيه ، وتبدأ دورة جديدة في نظام (القيم – الموضوعية – العدالة – الحضارة) . ونقف هنا امام مفترق طرق : ما هو مسار هذا النظام ؟ بمعنى أي نوع اى مستوى من العدالة سيتحقق ؟ فلكل مستوى (أو نوع) قيمه المتولدة عنه والتي تبدأ الدورة الجديدة من عندها . والاهم من كل هذا ، هل عدنا لندقق من كان اولاً : البيضة ام الدجاجة ؟ متناسين الواقع المرير الذي نعيشه ؟ والواقع الذي نعيشه ، والقيم التي نعتمدها فكرا وسلوكا ومنهجا من نتاج من ؟ وبأي مرحلة من مراحل تطور الحضارة الانسانية نحن الان ؟ وما هي درجة نقاوتها (شفافية التلوث) ؟ اسئلة تحير من لا يريد ان يشتغل بعيوب الاخرين ، ولديه متسع من الوقت للكلام و الكتابة لمن يقرأ ليشغل نفسه .

من الناحية التربوية ، لننظر الى الوراء قليلا ، عسى ان نستخلص العبر . ما هي القيم التي كانت سائدة في مجال التربية والتعليم في العراق خلال عقود : الخمسينات ، الستينات ، السبعينات ، الثمانينات و التسعينات من القرن الماضي ؟ لماذا تغيرت هذه القيم وكيف ؟ هل كان المنهج التعليمي وراء ذلك ؟ ام عملية تاهيل المربي (أداة تنفيذ المنهج) ؟ ام كان للتغيرات الاقتصادية – السياسية الدور الحاسم في ذلك ؟ ام جميعها ؟ وهل ما حدث في العراق حصري به ؟ ام انها موجة طفحت بالمنطقة والعالم ؟ والى اين تتجه كرة الثلج المتدحرجة (سنو بول) هذه ؟ (تكبر مع كل دورة تكملها) . هل يمكن تصنيف العوامل المؤثرة الى داخلية و خارجية (ذاتية و موضوعية) ؟ واذا امكن ذلك ، فهل نكون موضوعيين في تقييم العوامل الداخلية (ذاتية وموضوعية) ؟ وهل سنكون جريئين ونصارع انفسنا بما لها وما عليها بكل امانة وصدق و اخلاص ؟ ام أن المحاباة أصبحت طبعاً وليس صفة مكتسبة ؟

لا يحدث التغيير فجأة ، ولكنه يتحرك ، وفي الغالب ، باتجاه محدد ولكن ليس بشكل مباشر ، وعندما يحدث يصعب العود فيه ، فتصبح المسيرة في ذلك الاتجاه حتمية (او هكذا يوحى) . وبافتراض توفر ارادة التغيير فلا بد وان يعتمد سبيلين اساسيين لتحقيق ذلك : الذات (لا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) ، و التربية والتعليم كوسيلة بناء جيل المستقبل . فهل احساسنا بلاعدالة الاوضاع ولا موضوعية القرارات والسلوكيات والمناهج وصل الى درجة تجبرنا لنعيد النظر في قيمنا ؟ أم ما زلنا ننتظر عصى سحرية تعيد الماضي التليد ، او تفيقنا من سباتنا وتنعش قيمنا و آمالنا ؟ انه هو العليم الخبير ، وهو على كل شيء قدير ، وهو أرحم الراحمين ، وهو الحق العدل المبين ذو القوة المتين .

ولكي يكون للكلام فائدة ، من الضروري تلخيص الافكار وصياغتها على شكل نقاط ، تشكل محاور للحوار والنقاش و الجدل ، ولكن شرط ان لا يؤدي الخلاف في الرأي الى حمل السلاح ، فالفكر النير ارقى من أي سلاح صنعه الانسان ليقتل اخيه الانسان . والفكر الانساني يحيي ولا يقتل ، ينعش ولا يهشم ، ينفذ ولا يوبد ، انه تفاعلي بفطرته ، متفائل بطبيعته .

1- قيم السماء (مثالية) لانها صالحة لكل زمان و مكان ، و مغرقة في المثالية لغرقنا نحن في دوامة الماديات الجافة ، لذا ابتعدنا عنها كثيرا .

2- حوار الحضارات ، واقع فرض نفسه ، ليس على مستوى العالم (العولمة) ، بل حتى على المستوى المحلي . فالتنوع القيمي – الموضوعي – الحضاري موجود على جميع المستويات و المقاييس و الاصعدة . لذا علينا ان نحترم قيم الاخرين كي يحترموا قيمنا و مبادئنا . ولنكون موضوعيين معهم ، عسى ان يكونوا هكذا معنا .

3- غلق النوافذ يؤدي الى (التعفن) ، وفتحها على مصراعيها يؤدي الى دخول كل ما هو غير مرغوب فيه ، لنبحث عن (واقيات – فلتر) تصفي المدخلات و تستر المخرجات و تنتفس الصعداء حينئذ .

4- أصدرنا تشريعات حماية البيئة من التلوث ، ونسوا تلوث قيم المجتمع ، (ان لم يسهموا في تلوينها عن عمد) ، طالبوا باستدامة التنمية ، ونسوا استدامة القيم و العدالة . لنطالب بها ، ففيها حياتنا و كرامتنا ، فيها حضارتنا الانسانية الحقيقية .

5- لنبدأ بالتغيير الايجابي من الجامعة ، فهي مرآة مستقبل الامة . انها تجمعنا بكل طوائفنا و قيمنا و سلوكياتنا . و لكي تستطيع صهرنا في بوتقتها ، لا بد من قيم اكااديمية وضوابط مهنية صارمة تطبق على الجميع . حينها تسمو قيم العلم والموضوعية والعدالة ، و نتوحد سلوكا و منهجا وان اختلفت أفكارنا و مذاهبنا و قومياتنا .

6- تفاعل الحضارات (الرئيسية و الفرعية) ضرورة انسانية للتقدم و الرقي ، اما صراعها فيعني العزم على المزيد من القهر و التخلف و الظلم .

7- القيم مرآة تعكس مستوى الحضارة و درجة موضوعيتها و نوع العدالة فيها ، فلنركز على القيم الحميدة لانها سبب و نتيجة في الوقت نفسه .